بحوث في التعليمية

منظومة التعليم العربي في الجزائر المحتلة

أ.د. أحمد جلايلي
فاطمة دوحاجي

الملخص:

هذا الموضوع يتناول المنظومة التعليمية لأبناء الجزائر في عهد لجزائر المحتلة من الدولتين: العثمانية والفرنسية، ولا شك أن الأطوار التعليمية المقصودة هنا هي الطور الابتدائي لا غير، وما سواه يكاد يكون منعدما عند أبناء الجزائريين، إذ لا حظ لهم في المراحل التعليمية المتقدمة في زمن الاحتلال الفرنسي منذ ألف وثمانمائة وثلاثين 1830 م من السنة الميلادية، إلى غاية ألف وتسعمائة واثنين وستين 1962 م من السنة الميلادية، ولا غرو إن قصدت مرحلتي التعليم المتوسط والتعليم الثانوي المراحل المتقدمة، لأن مرحلة التعليم الجامعي لا يحظى بها إلا أبناء المتعاونين مع المحتل الفرنسي، الذين يؤيدونه في الاستيطان، أو ممن كانوا من أبناء الأغنياء الذين لهم السلطة المالية في المجتمع الفرنسي، وأما أبناء الفقراء فلا يتقنون إلا الرعي والأشغال الشاقة وتنظيف بيوت الفرنسيين، فالفقر والتهميش لأبناء الجزائر عموما حدث عنه ولا حرج....

Resumé

Cet article traite du système d'enseignement algérien à l'époque de la colonisation française s'etalant de la période : 1830 - 1962. Le palier d'enseignement scolaire auquel nous nous sommes penchés dans cette étude, est celui du primaire. Les autres paliers de ce stade scolaire s'avéraient carrément inaccessibles pour la grande majorité des Algériens tels que l'enseignement moyen

et secondaire. Pour ce qui est de l'enseignement universitaire, seuls les descendants de ceux qui soutenaient l'occupation française et ceux qui possédaient un capital financier considérable, étaient privilégiés. En ce qui concerne les descendants de la classe pauvre algérienne, les travaux les pénibles leur étaient déstinés. La marginalisation, les inégalités et l'injustice faisaient partie du pain quotidien de cette classe dénuée de tout droit.

على الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى العثمانيين في تسيير البلاد أثناء إحكام سلطتهم على الأراضي الجزائرية قبل الاستعمار الفرنسي فإن المؤسسات التعليمية المتواضعة في نهاية عهدهم كانت منتشرة في الحواضر والمدن الجزائرية، إذ كان الجزائريون يشيدون المساجد، وكتاتيب التعليم القرآني، والزوايا معتمدين في البناء والتجهيز على سواعدهم وأموالهم الخاصة، وقد يستعينون بالتبرعات من الأهالي المحسنين في الأرياف والمدن الجزائرية، وقد احتفت كثير من المدن الجزائرية العامرة، مثل: تلمسان وقسنطينة ومازونة ووهران والجزائر العاصمة وعنابة وبسكرة[1] بمؤسسات تعليمية ومراكز ثقافية ودينية مرموقة كان لها الأثر البليغ في تعليم ووعي الخاصة والعامة من أبناء الجزائر.

وكان تسيير بعض المؤسسات التعليمية تابعا لجماعات حكومية، وكان أكثرها تحت مسؤولية الأهالي الجزائريين، وكان التسيير قائما على نظام الوقف[2]، كوقف المساجد والكتاتيب والزوايا في المدن والقرى التي كان لها نشاط تعليمي وتثقيفي وتربوي جاد وفاعل في أوساط الشعب الجزائري، الذي حافظ بامتياز على الهوية الجزائرية، إذ تمسك بعروبته وبإسلامه، وافتخر بتاريخه وحضارته.

ويشهد على ازدهار المؤسسات التعليمية – ولو شكليا– في عهد العثمانيين ما ورد في التقارير العسكرية الفرنسية في بداية احتلالهم حيث تقول:

« إن التعليم في بداية الاحتلال الفرنسي كان على أحسن حال، ومنتشرا في المدن والقرى والأرياف انتشارا ملحوظًا»[3].

كما يعترف بذلك بعض المؤرخين الفرنسيين منهم: مارسيل إميريت (Emirit Marcel)، ودوماس (Dumas) وتورين (Turrin) [4].

ومهما كانت عناية العثمانيين بالمراكز التعليمية وتعددها في الجزائر، فإن المنظومة التربوية والتعليمية لم ترق إلى الكيفية التي كانت ترجى منها، ولم ترض طموحات الشعب الجزائري آنذاك، إذ غلب عليها طابع الجمود والتخلف العقلي، وتحجر الفكر، وخلت من كل إبداع وابتكار لدى المتعلمين في جميع المراحل التعليمية، وفي مختلف العلوم والفنون.

وقد يعود هذا التخلف العقلي والفكري إلى عناية العثمانيين بالجانب المالي والإداري، لأنه كان الشغل الشاغل لهم في هذه البلاد المحمية في نظرهم، والمحتلة في نظر الواقع والتاريخ، فجمع المال عند السلاطين العثمانيين هو الغاية القصوى في الجزائر وفي غيرها من الأقطار المحتلة، فهو موردهم في المعيشة المترفة والحياة الممتعة، كبناء المساجد العظمى، والقصور الشامخة، والعمارة الفاخرة، وزرع الحدائق والبساتين الخلابة في اسطنبول وإزمير وأنقرة وبورصة وغيرها من المدن التركية.

ومما عمق مشكلة التعليم وضعف اللغة العربية في الجزائر العثمانية جهل الأتراك أنفسهم – حكاما وعواما – للّغة العربية الفصحى، فهم لا يفهمونها نطقا وكتابة، لذلك لا يتواصلون بهان ولا تقضى بها أغراضهم مع عامة الشعب الجزائري، وهو مما أدى إلى عزلها في التخاطب والتواصل، وجهلهم لهذه اللغة أدى كذلك إلى عدم استعمالها وإلى عدم ترسيمها في تسيير الإدارة التركية الجزائرية، بل عاشت اللغة العربية معزولة مقتصرة على على الجانب الديني التعبدي كتلاوتها في الصلاة والأدعية في المناسبات الإسلامية في المساجد

والزوايا، واستقرت اللغة العربية العامية والفصحى مدة الاحتلال المرير في ألسنة الجزائريين، يتواصلون بها في بيوتهم، مع الأسر والقبائل، وفي مراكز أعمالهم الخاصة، كالفلاحة والتجارة، وفي الأسواق والمناسبات الدينية والاجتماعية، فهي لسانهم على كل حال لم يكن لها بديل من اللغات على الرغم من كيد الاحتلال، فكانت اللغة المقاومة الصلبة التي لم تهتز للهجر ولا لسياسة الأتراك المعادية شفاهة وإدارة.

ولا ريب أنَّ انعدام المراكز العلمية الكبرى في الجزائر، كالأزهر والزيتونة والقرويين والجامع الأموي كان أيضا عاملا مساعدا في إضفاء رداءة المنظومة التعليمية في الجزائر آنذاك، هذه المنظومة التربوية العثمانية التي ولَّدت الجهل بأنواعه، ووأسهمت في توليد التخلف الفكري، والانحراف العقلي، والصراع القبلي، والبدع الشرعية عند بعض الجزائريين[5].

وتلخيصا لما سبق إن العثمانيين في نهاية عهدهم بالجزائر اعتنوا بجمع المال وتأسيس المباني الإدارية والعسكرية، واهتموا بتشييد العمارة العثمانية والقصور العالية التي أقام فيها الحكام الأتراك وأهاليهم، واعتنوا ببعض الهياكل التعليمية المتواضعة، ولكنهم أهملوا الجوانب التربوية والعلمية المتمثلة في إعداد البرامج الراقية، وتخلوا عن تطوير التكوين المتواصل، ولم يلتفتوا إلى تعليم اللغة العربية وإلى ترقيتها في المدارس الجزائرية، وهذا الإهمال والتهميش المتعمد من الأتراك للغة العربية نتج عنه بالضرورة سياسة سلبية موجهة إلى التجهيل. [6]

وأما حال التعليم والثقافة مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر فزادت سوءًا وتدهورًا، ففي سنة 1830م تقرر حجز أملاك العثمانيين والأوقاف التي كانت تمول باحتشام المدارس العربية الجزائرية.

وبهذا الحجز الفرنسي لأموال العثمانيين حرمت المؤسسات التعليمية في الجزائر من السند المالي، على ضعفه في عهد العثمانيين، وهذه خطوة فرنسية

أولى ممنهجة لضرب اللغة العربية وطمسها نهائيا، وخطوة لإبعاد المسلمين عن قرآنهم، وبداية لردم الديانة الإسلامية، واستبدالها بالديانة المسيحية، وهو ما أشار إليه "لافيجري" (Lavigerie) (ت 1892 م) صراحة، فقال: « علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعني – على الأقل – بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء، بعيدين عن العالم المتحضر »[7]،

فالمشروع التعليمي والتربوي الذي بشَّرتْ به فرنسا في الجزائر منذ بداية احتلالها هو أنْ لا لغة عربية، ولا قرآنا يتلى، ولا دينا إسلاميا في هذه الأرض الشاسعة التي تنام وتصبح على الثروات العظمى والخيرات الدائمة.

فأعدت فرنسا لهذا الغرض سياسة تعليمية خاصة، نفذتها على مراحل مختلفة، منها:

_ تقليص الكتاتيب القرآنية والزوايا والتضييق عليها: وذلك بإنشاء مدارس موازية، وبأسماء مختلفة، لأن الكتاتيب والزوايا كانت منتشرة في بوادي الجزائر ومدنها، تلقن فيها أساسيات اللّغة العربية، ومبادئ القراءةً والكتابةً، فكان التلاميذ المبتدئون يحفظون القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية القصار، وجزءا من متون اللّغة، كمتون القراءات القرآنية، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم البلاغة، وعلم العروض، وعددها كان كثيرا إذ قدرت سنة ألف وثمانمائة وواحد وسبعين من السنة الميلادية 1871م بما يقرب من ألفين هيكلا[8]، وهذه المؤسسات التعليمية كان لها شأن عظيم وعمق شعبي عريض في تاريخ الجزائر العربية، وما يزال هذا الشأن العظيم قائما فيها إلى يومنا هذا.

_ المدارس المغربية الفرنسية: وهي تسمية استعمارية فرنسية لهذه المدارس، أنشئت سنة ألف وثمانمائة وست وثلاثين من الميلاد 1836م، إلى أن فشلت

سنة ألف وثمانمائة وخمسين من الميلاد 1850م، ومن خصائصها تدني مستوى التعليم العربي فيها، ونفور التلاميذ الجزائريين منها[9].

_ ثم **المدارس العربيّة الفرنسيّة:** التي تأسست بموجب مرسوم مؤرخ في الرابع عشر 14 جويلية من ألف وثمانمائة وخمسين من السنة الميلادية 1850م، إذ اعتنت السلطة الفرنسية فيها بالمباني والتجهيزات، كما جلبت لها بعض المعلمين المستشرقين الذين كانت لهم دراية بسيطة باللغة العربية، فسجل فيها للتمدرس بعض أبناء الأعيان الجزائريّين وبعض من الأغنياء الذين رحبوا بالاستعمار ودعموه، ونشط لهذا الغرض زمرة من المستشرقين منهم برينيه (Bresnier) وشربونو(onneauCherb) (ت1882م)، وأعلنت هذه المدارس فشلها وأغلقت أبوابها نهائيا سنة 1883م[10].

_ **المدارس الحكومية الثلاث**[11]: يقصد بها مدرسة تلمسان، ومدرسة قسنطينة، ومدرسة المدية التي حوّلت سنة ألف وثمانمائة وتسع وخمسين من الميلاد، 1859م، إلى الجزائر العاصمة، وهي المدارس التي أنشئت بموجب مرسوم فرنسي مؤرّخ في ثلاثين 30 سبتمبر سنة ألف وثمانمائة وخمسين من الميلاد، 1850م وكان الهدف من هذه المدارس الثلاث حصر التعليم في عدد قليل من الجزائريين، لإعدادهم لوظائف مهنية أشد قساوة، وهي المهن والوظائف التي لا يقوى عليها أبناء المعمرين، أو قل: هي مهن شاقة مبرمجة للشباب الجزائري قصد تهيئتهم لبعض الوظائف الإدارية والفلاحية والصناعية، التي تعوز الدولة الفرنسية في مستعمراتها[12].

_ثم **المدارس الدينية المسيحيّة:** التي تأسست ابتداء في سنة ألف وثمانمائة ووثمان وسبعين من الميلاد 1878م، في منطقة القبائل والبيّض وأولاد سيد الشيخ والمنيعة وورقلة وما جاورها من قرى، وكان الهدف منها تدريس اللغة العربية ببرامج تافهة وطرق بدائية، قصد تكوين شعب متخلف في تفكيره،

ومسلوب في وعيه، وعاجز عن تحقيق استقلاله، وافتكاك حريته من مخالب الاحتلال، وكان الهدف أيضا من نشر التعليم العربي المتدني في الجزائر أن تنشر فرنسا التبشير بالدين المسيحي، فهيأ المعلمون والمثقفون المسيحيّون أنفسهم إلى هذا الواجب الديني المقدس فدعوا إلى حرية الفكر وإلى نشر التعليم، وتظاهروا بالاستقلالية عن النظام الاستعماري، وادَّعَوْا أن عملهم دعوةٌ للتربية الإنسانية، ورسالة إلى حرية الرأي والاعتقاد، وهو خدمة مجانية لا غير يقدمها المحتل الفرنسي للشعب الجزائري[13].

إن الدعوة المسيحية استطاعت أن تحقق بعض مآربها في هذه المدارس، لقد ارتاحت لهم بعض النفوس الضعيفة من العائلات الجزائرية، واستحسنت أعمالها، وصفقت لمشروعها التعليمي التبشيري، ولعل نجاح الآباء البيض في بعض أهدافهم الاجتماعية والتربوية يعود إلى التحلي أو التظاهر بالسيرة الحسنة في المجتمع الجزائري، وإلى إغداق التبرعات والهدايا إلى العائلات الجزائرية الفقيرة، وتقديم الخدمات المجانية لأهالي القرى والأرياف المعوزة، وخاصة في الأوساط الشعبية التي يشيع فيها الجهل ويتفشى فيها الجوع وينتشر المرض.

فالفراغ السياسي والإهمال الإداري للسلطة الجزائرية الضائعة، بل ضياع الدولة الجزائرية كلها لسيطرة الاحتلال الفرنسي الذي أدى إلى تفكك التكافل الاجتماعي، وهدم التعاون الأسري بين أفراد الشعب الجزائري، مما جعل بعضهم عرضة للاحتياج والتسول والاستجداء من المعمرين الفرنسيين، ومنه إلى قبول أفكارهم وتبنيها واعتناقها عقيدة مسيحية صحيحة.

_ثم **مدارس جول فيري (Ferry Jules):** الممتدة من سنة ألف وثمانمائة وثلاث وتسعين من الميلاد 1893م إلى سنة ألف وتسعمائة وثلاثين من الميلاد 1930م، وهو الذي دعا السلطة الفرنسية لتولي عنايتها بالمؤسسات التعليمية في

منطقة القبائل، فأنشئت مدارس في هذه المنطقة خاصة، بحجة أنها المنطقة الأمازيغية التي لها قابلية الانفصال عن الوطن الأم، على أن الأمازيغ لا يقبلون التعايش مع الجزائريين العرب، وهي المنطقة التي تستجيب للثقافة الفرنسية أكثر من غيرها، وبحجة أنها القبائل التي تتواصل بين أفرادها باللغة الأمازيغة رافضة اللغة العربية، لهذه العناية الفرنسية بالتعليم ولو عناية شكلية ارتقى التعليم نسبيا في عهده، ولكنه تقلص عطاؤه بعد إنهاء مهمته[14]، بل حولت المدارس الجزائرية إلى مدارس خيام (Gourbis Ecoles)، أو مدارس ملحقات (Ecoles Auxiliaires)، يديرونها معلمون مبتدئون جزائريون، تحت سلطة إدارة فرنسيّة، وببرامج مهترئة ومناهج هشة تافهة، والمعلمون فيها أميون أو أشباه الأميين[15]، وعزف معظم الجزائريين عنها لأسباب لغوية ودينية وسياسية واجتماعية، واستمرت المقاطعة إلى غاية العشرينيّات من القرن العشرين، إلى أن حلت مرحلة الإقصاء العمدي لهم من قبل المعمرين الرافضين لتعليمهم وتهميشهم في الوظائف والمهن الحكومية[16]، لاكتفائهم باليد العاملة من الفرنسيين وأبناء المرتزقة الوافدين إلى الجزائر المستعمرة من دول أوروبية وأفريقية مستعمرة على وجه التعيين.

هكذا كانت الجزائر المستعمرة تتخبط في منظومات تعليمية تربوية متعددة متناقضة، وتتخبط أيضا في تجارب متنوعة فاشلة، ترمي كلها إلى إغراق الشعب الجزائري في الأمية والتجهيل، لتأسيس عالم من الخرافات والبدع، ولتكوين شعب ضعيف متخلف، لا يملك قوة عقلية، ولا صحوة دينية، ولا يحمل وعيا وطنيا يقوده إلى التحرر، ولا يقوى على مجابهة القوى الاستعمارية السالبة لممتلكاته ومقدرات وطنه الجزائر.

ولكن قد هيأ الله والقدر للأمة الجزائرية من أبنائها رجالا أشداء اكستبوا العلوم والمعارف، إما عن عصامية صرفة وإما عن تعليم وتدريب في مؤسسات

عربية كجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس في المغرب الأقصى الشقيق، وجامع الأمويين في دمشق، وفي مؤسسات تعليمية أخرى، كمدارس العراق واليمن ، فرفعوا راية التعلبم والتربية الهادفة فنظموا جمعيات خيرية واجتماعية وتعليمية، وأسسوا أحزابا سياسية، وبنوا مدارس لتعليم اللغة العربية ، ولنشر الوعي السياسي ، في أوساط الشباب لرفع التحدي وصد غبن الاحتلال بأشكاله وأنواعه، وبهذا التعليم المبرمج، وبالسياسة الهادفة، وبالتدبير المحكم، وبالتخطيط الرصين، وصولا إلى إذكاء ثورة شعبية عارمة على الاحتلال البغيض حقق الجزائريون الهدف المنشود في أحلامهم، إنه الاستقلال وبناء الدولة واسترجاع السيادة والهوية الجزائرية ، وهكذا ضاعت أحلام فرنسا ومن حذا حذوها إلى يوم الدين.

الهوامش والإحالات

[1] –أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة(1830م–1962م)، عمار هلال، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص : 20.

[2] – الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، عبد المجيد مزيان، مجلة الثقافة السنة:15، العدد:90، وزارة السياحة والثقافة الجزائر، 1985م، ص: 38.

[3] – أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830م، 1962م)، ص: 102.

[4] – التعليم في الجزائر(قبل وبعد الاستقلال)، الطاهر زرهوني، (دط)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1994م، ص: 12.

[5] – **يراجع**: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، (دط)، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1981م: 324/2. والمغاربة في مصر في العصر العثماني، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، (دط)، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، (دت)، ص:24. وأبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، ص:102. والشعر الديني الجزائري

الحديث، عبد الله الركيبي، (ط1)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981م، ص:11.

[6] – آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، أبو خلدون ساطع الحصري(سلسلة التراث القومي)، (ط2)مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 1985، ص :145.

[7] – المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، صالح خرفي، (دط)، الشركة الوطنية للنشر، 1983، ص:49.

[8] – التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ص: 14.

[9] – المرجع نفسه، ص: 15.

[10] – المرجع نفسه، ص: 15، والمجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة تورين، مجلة الأصالة، العدد: 6، السنة الأولى، جانفي 1972م، وزارة التعليم الأصلي، الجزائر، ص :119.

[11] – يقصد بالمدارس الثلاث:مدرستا تلمسان، وقسنطينة، ومدرسة المدية التي حوّلت سنة 1859م إلى الجزائر العاصمة. **يراجع:** التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستعمار، ص:15، والمجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، ص: 119، والمدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، ص: 50.

[12] – المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، ص: 119، وأبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: 105.

[13] – التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ص : 14.

[14] – المرجع السابق، ص: 114.

[15] – أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، ص:106.والتعليم في الجزائر، ص:22.

[16] – أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: 118.